

## التخزين بالمغرب الوسيط والحديث: إسهام في دراسة تاريخ السلوكيات Storage in Medieval and Modern Morocco: Contribution to the Study of the History of Behaviors



د. علي أعدي

[aliouaddy@gmail.com](mailto:aliouaddy@gmail.com)

جامعة ابن زهر أكادير، المملكة المغربية

تاريخ القبول للنشر: 2019/03/11 تاريخ الاستلام: 2019/03/25



### ملخص:

يتناول هذا المقال سلوك التخزين في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط والحديث، لما له من أدوار طلائعية، خاصة تأمين القوات في ظل تردد الكوارث الطبيعية، فاهتمت به الدول المتعاقبة على حكم المغرب، التي أعدت مخازن تدخر فيها الزرع لوقت الحاجة، كما راهنت عليه المجتمعات في المدن والبوادي كذلك. ويمكننا رصد نوعين من السلوكيات: أولاً المطامير وهذا النوع هو الأكثر انتشاراً وطلباً، في حين يضم النوع الثاني المخازن الجماعية (إيكودار) والتي تنتشر في المرتفعات الجبلية، خاصة عند المجتمعات الزراعية.

**الكلمات المفتاحية:** سلوك التخزين - الحبوب - المغرب - المطامير - المخازن الجماعية.

### Abstract :

This article examines tackles the storing behavior in AL Maghreb during the middle ages and the modern era. The storing behavior has pioneering rules, especially in securing supplies during natural disasters. The successive authorities has maintained this behavior by building collective stores or warehouses to secure seeds for the time needed either in cities or countryside.

We can detect two types of behavior: the first type is buried stores which is the most common and desirable, the second type is collective warehouses (IGOUDAR) which is commonly found in mountains, especially the agricultural communities.

**Key word:** storage behavior – wheat – Maghreb – buried – collective warehouses.

## مقدمة:

إن الحضور القوي لظاهرة الادخار والتخزين في المغرب عامة ظاهرة بنيوية، تعكس خصوصيات البنيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية السائدة، حيث أصبح هذا السلوك الواقعي إجراء احترازي، وعادة راسخة في معظم الحواضر والبوادي، من أجل تجاوز الأزمات الغذائية التي تسببها الكوارث الطبيعية بشكل فجائي، وما يعطي صدق التحليل لهذا الظاهرة ما أقره ابن خلدون حين أكد أنه: "الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار، فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات، فعلا الزرع، وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا، وكان بعض السنوات الاحتكار مفقودا فشمل الناس الجوع"<sup>1</sup>.

ولا مرأ أن هواجس الخوف من الهلاك والزوال، أفرضت ثقلها على المجتمع والسلطة المركزية خلال فترتي العصر الوسيط والحديث، على إعداد مستودعات لتأمين القوت، وحفظ البقاء خاصة في سنوات القحط، مما صار لازما عليها أن تختار لها أمكنة محصنة خوفا من النهب والغارة.

وفي هذا السياق يمكن التمييز بين نوعين من المخازن: نوع اتخذته السلطة المركزية ذو وظيفة مزدوجة، فبالإضافة إلى كونها تشكل مستودعا دفاعيا وتحصينا للتصدي للغارات المفاجئة، فهي ركيزة أساسية في السياسة التنظيمية للدولة لتأمين الموارد، وضمان الاستمرارية في الحكم، في حين يضم النوع الثاني مرافق صممها المجتمع في البوادي والحواضر لتأمين القوت تحسبا لأي طارئ.

وفي كل الأحوال، نؤكد أن دراسة متخصصة في سلوك التخزين أصبحت في حكم النادر والمفقود باستثناء مقالات متناثرة في مجلات، أو مباحث تأتي عرضاً في بعض الدراسات، لذا جاء هذا المقال كمحاولة أولية لإعادة النظر في إشكالية الادخار من منظور تاريخي، وتصور جديد يعطي للظاهر أهميتها في البحث التاريخي، وذلك لتقديم مقارنة تاريخية شمولية.

واعتماداً على ما وفرته المصادر والدراسات من معلومات، ارتأينا تقديم أقرب صورة للموضوع، معتمدين في ذلك على الوصف، والتحليل، والاستنباط، ثم إعادة تركيب بعض الحلقات المفقودة من تاريخ الادخار، ثم بذل جهد في تمحيص بعض القضايا التي تربط بين الادخار والمجتمع.

## 1- سلوك التخزين بالمغرب الوسيط

ركزت الإسطوغرافية الوسيطية على تتبع وكشف تفاصيل دقيقة عن ظاهرة الادخار والخزن في تاريخ المغرب، فحضور هذه الظاهرة؛ وبكثافة في العديد من مناطق المغرب؛ تعكس مما لا يدع مجالاً للشك اكتساب المجتمعات الوسيطية خبرة كبيرة في مقاومة الجوع بواسطة سلوكات مادية كالادخار والتخزين، ففي تامسنا "دشار كبير يأكل من هري، ويشرب من بير، فقد النضارة وعدم مرافق الحضارة، إلا أنه على الاختزان أمين ولحفظ الحبوب ضمين"<sup>2</sup>، ومن ثم ندرك أن تنامي سلوك الادخار له ما يبرره؛ حيث أن موارد إنسان المغرب الوسيط مرتبطة أشد الارتباط بالأرض من جهة، أي أن المجال الطبيعي هو مصدر الثروة أو القلة والندرة، والذي يحقق بالطبع نوع القوت من زرع وماشية، وما تسمح به طبيعة المناخ من إمكانيات وموارد من جهة أخرى<sup>3</sup>.

وفي هذا السياق، تبدو الإجراءات الاحترازية حاجة ملحة يعول عليها الإنسان بالمغرب الوسيط، فأسهم ذلك في إفراز سلوكات مرتبطة بإعداد مستودعات مخازن الغلال

في البوادي والمدن؛ تضمن له أمنا غذائيا اختار لها أمكنة منيعة خوفا من النهب، ولا غرابة في ذلك؛ إذا عرفنا أنها ستشكل صمام أمن وأمان.

ويبدو من خلال المادة التي توصلنا إليها في ثنايا المصادر، أن الادخار لم يشكل ضرورة بالنسبة للمجتمعات الوسيطة فحسب؛ بل راهنت عليه الدول المتعاقبة على حكم المغرب، ففي فترة المرابطين هيئوا مجموعة من المخازن تحدث عنها محمد بن القاسم الأنصاري السبتي بقوله: "وعدد المحارس ثمانية عشر محرسا من المدينة إلى اثني عشر ميلا من خارجها من ناحيتي البحر (...) طالع سبعة الذي بأعلا جبل مينائها المعروف عند الناس بالناظور الذي ابنتى المرابطون هنالك للنظر الراتب به حصنا"<sup>4</sup>، كما أقدم الموحدون على بناء مخازن ومدخرات محصنة للحبوب؛ حيث أكد الحميري بأن جبال الأطلس الكبير "أَذْرَارُ نْ دَرَنْ" "في أعلاه جمل من قلاع وحصون تنيف على السبعين حصنا، ومنها الحصن المنيع القليل مثله في حصون الأرض بنية وتحصينا ومنعة، وهو في أعلى الجبل حتى إن أربعة رجال يسكونه ويمنعون الصعود إليه [لأن الصعود إليه] من مكان ضيق وعمر المرتقى لا ترتقي إليه دابة إلا بعد جهد ومشقة اسمه تامللت، وهو كان عمدة الإمام المهدي حين ظر بالمغرب وهو الذي زاد في تحصينه وجعله مدخرا لأمواله"<sup>5</sup>، والأمر نفسه قام به الخليفة يعقوب المنصور الموحي الذي اتخذ "مخازن للحبوب يوضع فيها الشعير للخيول، والقمح للناس"<sup>6</sup>، أما فترة حكم بني مرين فأولت الدولة اهتماما فائقا لبناء مخازن ومدخرات محصنة للأمن الغذائي؛ من أجل استخدام الفائض كوسيلة اقتصادية وسياسية، بحيث "كان هريان مبيان كذلك بسقف مقوس، في كل هري طبقة علوية، يوضع العلف في الطبقة الأرضية، ويخزن في إحدى الطبقتين العلويتين الشعير للخيول، ويخزن القمح في الأخرى، وتسع كل من الطبقتين أكثر من ألف روجي من الحبوب، وقد أعدت طاقات في سقف هاتين البنائيتين؛ يرقى إليها بواسطة مدرج

من الحجر؛ تصعد فيه الدواب محملة إلى هذا السطح حيث يكال الحب، ثم يصب من هذه الطاقات، وإذا أريد إخراج الحب اكتفى بفتح الثقب الموجود في أسفل الهري"<sup>7</sup>، وبالموازاة مع ما سبق أولت الدولة المرينية كذلك اهتماما فائقا لتهيئة المستودعات الرسمية وفق تخطيط يستجيب لحاجياتها، وذلك بغية تأمين القوات، وفي هذا الصدد قدم الأنصاري وصفا دقيقا لأحد فنادقهم، وذكر ما يلي: "وعدد الفنادق حسبما استفاض على السنة البلد ثلاثمائة وستون فندقا، أعظمها بناء وأوسعها ساحة الفندق الكبير المعد لاختزان الزرع (...). يحتوي على اثنين وخمسين مخزنا ما بين هري وبيت، تسع تلك المخازن من قفزان الزرع الآلاف العديد التي لا تبلغ الحصر، ومن ضخامته أن له بابين: باب إلى صحنه والآخر إلى الشوارع المحملة الدائرة بالطبقة الثانية لكون الأرض مرتفعة من تلك الجهة تدخل على البابين الجمال بأحمالها من الارتفاع والاتساع الكبير"<sup>8</sup>.

إن هذا الإجراء المجسد في الدول الوسيطة يوضح أن السلطة بمثابة خزان للقوت والتموين، بالمطامير والأهراء التي تنتشر في مناطق بلاد المغرب، يشرف عليها مسؤول يعرف "بخازن الطعام" أو صاحب الطعام عند الموحدين<sup>9</sup>، هدفها تحقيق التراكم والخزن تحسبا لأي طارئ، وعلى ضوء هذا جاء مصطلح المخزن الذي يدل على "تجمع الحبوب وخزنها، باعتبار الدولة المحتكر الوحيد لحبوب البلاد، (...) وتتواجد هذه المظمورات أو المرس حينما تكون مجموعة في المدن؛ حيث الضيعات المسيجة، وفي القرى مركز القواد الكبار لمراقبة المظمورات المملوءة بالحبوب"<sup>10</sup>؛ من هنا تبلور مصطلح "المخزن" الذي أصبح كنهه يحمل فكرة التراكم، والاحتفاظ بالشيء، وليس من الصدفة أن يطلق على الدولة تلك اللفظة منذ هذه الفترة بالذات، ليستمر في التداول إلى وقتنا الراهن<sup>11</sup>.

وعند استقراءنا لمتون المصادر، توصلنا إلى أن المجتمعات الوسيطية تفننت في تهيئة مرافق الادخار الفردي تحسبا لفواجع الكوارث الطبيعية الدورية التي تجتاح البلاد<sup>12</sup>، أو الحروب والصراعات القبلية؛ إذ في ظروف القحط يبرز دور المطامير والأمراس التي يقع الهجوم عليها، حيث تتحرك قبائل الجهات المتضررة للزحف على مخازن الحبوب<sup>13</sup>.

إن بروز هذا النوع من العمران الذي يتلاءم وطبيعة الواقع الذي يشهد اضطرابات الأمن الغذائي، فرض على إنسان المغرب الوسيط إضفاء الطابع التحصيني عليها، فقد سجل أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (توفي 749هـ) في هذا الصدد ملاحظة تؤكد صدق هذا التحليل، فعند حديثه عن أهراء ومطامير فاس، يؤكد أنها "جمعت في مكان واحد، يستدير بها سور منيع به باب وغلق"<sup>14</sup>، ولإضفاء طابع الحماية عليها، أوكل لها أصحاب المواد المدخرة مهمة الحراسة لمداومين، يتقاضون أجورا قد تكون نقدا أو عينا، فأهل فاس مثلا "كان لهم حراس يحفظون حبوبهم"<sup>15</sup>.

والحاصل، أن العديد من مناطق المغرب في العصر الوسيط، راهنت على المخازن تحت أرضية، حيث تطلعتنا المصادر عن ترسيخ هذا الأسلوب المعماري التحصيني وانتشاره، مما يعكس أن هواجس الخوف ألقت بكالها ثقيلًا على شرائح واسعة من عامة المغرب، وفي هذا السياق يؤكد الحسن الوزان أن في مدينة فاس "قسم شمالي كله واقع في جبل من حجر كلسي، حيث توجد حفرة عميقة تحفظ فيها الحبوب سنين عديدة، وتبلغ سعة بعضها، أكثر من مائتي مد من الحبوب"<sup>16</sup>، وغير بعيد عن هذا، فالصورة نفسها سجلها بدكالة، إذ يذكر أن بها "مدينة مائة بير وهي قرية صغيرة واقعة على ربوة كلسية، في خارجها عدة مطامير، تعود السكان أن يخزنوا فيها حبوبهم، بحيث حفظ فيها القمح مائة سنة دون أن يفسد أو تتغير رائحته"<sup>17</sup>، ومثل ذلك في حاحا أن بها قلعة تسكدلت "يحمل إليها أهل البادية جميع حبوبهم خوفا من أن يسلبها الأعراب"<sup>18</sup>.

وعلى الشاكلة نفسها، ظهرت بالمغرب الوسيط أشكال معمارية أخرى مزدوجة الوظائف، تجمع بين الطابع الأمني الدفاعي من جهة، وبين الطابع التأميني للمدخرات الغذائية حتى لا تتعرض للغصب والنهب من جهة أخرى، ومن أهمها الحصون التي تعد شارة قوية عن عمران البوادي والمدن في آن واحد، فكثف إنسان مغرب العصر الوسيط من إعدادها وتجهيزها في مواقع استراتيجية؛ خدمة لتحقيق الأدوار المنوطة بها، وطغى عليها الجانب الأمني بامتياز؛ ولهذا ما يبرره؛ حيث أنها تعد بكل المقاييس رمزا لأمن الأقوات والمدخرات التي سيراهن عليها الإنسان في ظل اشتداد الحن والأزمات، وترصد بعض النصوص انطباعات عن ذلك؛ ففي جبال فازازا الأطلس المتوسط توجد بها "قلعة يخزنون فيها طعامهم"<sup>19</sup>.

وفيما يلي جدول بأهم العبارات التي وظفتها المصادر الوسيطية بخصوص ظاهرة التخزين والادخار.

| المصدر والصفحة                                               | العبارة                                                                                            | المجال الجغرافي |
|--------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------|
| ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص. 59. | "كثيرا من جبال المغرب وحصونه المنيعه"                                                              | جبال المغرب     |
| البكري، المغرب في أخبار المغرب، ص، 88.                       | "حصن حصين في أعلى الجبل لا متناول له، ولا مطمع فيه"                                                |                 |
| ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص. 123.                            | "لهم قلعة في جبل فازازا - الأطلس المتوسط يخزنون فيها طعامهم"                                       |                 |
| مارمول، إفريقيا، ج. 2، 270.                                  | "مدينة صغيرة قرب نحر ملوية (...) أسسها الأفارقة من خدم بني مرين ليتخذوها مخزنا لحبوبهم، وحصنا لهم" | كرسيف           |
| المصدر نفسه، ص. 270، 271.                                    | "كانت هذه المدينة حصنا لبني مرين (...) الذين هذه المدينة"                                          | دبدو            |

|                      |                                                                                                                                                                 |                                                            |
|----------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|------------------------------------------------------------|
| تامسنا               | "دشار كبير يأكل من هري ويشرب من بير، (...)<br>إلا أنه على الاختزان أمين ولحفظ الحبوب ضمنين"                                                                     | ابن الخطيب، نفاضة<br>في علالة<br>الاغتراب، ج. 3،<br>ص. 89. |
| الجمعة               | "توجد فيها مطامير يخزن فيها الأعراب المجاورون.<br>(...)<br>وتظهر في حوارها طواحن لطحن تلك الحبوب"                                                               | نفسه، ج. 1، ص.<br>302.                                     |
| تكتيت بين تادلا وفاس | "كلما أحكموا الأعراب سيطرتهم على منطقة من<br>المناطق الحصينة، إلا واتخذوها مخازن لمؤتمهم"                                                                       | الإدريسي، وصف<br>الصحراوية، ص.<br>87.                      |
| مراكش                | "فقرء مراكش كانوا يخزنون القمح في الغرف"                                                                                                                        | الونشريسي، المعيار<br>المغرب، ج. 5،<br>ص. 89.              |
| حاحا                 | "كان هريان مبنيان كذلك بسقف مقوس، في كل<br>طبقة علوية،<br>يوضع العلف في الطبقة الأرضية، ويخزن في إحدى<br>العلويتين الشعير للخليل، ويخزن القمح في الأخرى"        | الوزان، وصف<br>افريقيا، ج. 1، ص.<br>133.                   |
| دكالة                | "إذاوزكاغن قرية بنيت كحصن على جبل عظيم (...)<br>يوجد<br>في جبالهم أي نتاج غير كمية كثيرة من العسل الذي<br>يذخرونه"                                              | المصدر نفسه، ص.<br>102                                     |
| تسكدلت               | "مدينة مائة بير قرية صغيرة واقعة على روة كلس<br>خارجها<br>عدة مطامير، تعود السكان أن يخزنوا فيها حبوبهم،<br>حفظ فيها القمح مائة سنة دون أن يفسد أو تتغير رائحة" | المصدر السابق، ص.<br>153.                                  |
| تزوطة                | "قلعة يحمل إليها أهل البادية جميع حبوبهم خوفا<br>يسلبها إيها الأعراب"                                                                                           | نفسه، ص. 104.                                              |
| فاس                  | "كان مؤسسو تزوطة من بني مرين قبل أن يصبحوا<br>البلاد،<br>يحفظون فيها حبوبهم وأمتعتهم"                                                                           | نفسه، ص. 342.                                              |
|                      | "قسم شمالي كله واقع في جبل من حجر كلسي،<br>توجد<br>حفرة عميقة تحفظ فيها الحبوب سنين عديدة، وتبلغ<br>بعضها، أكثر من مائتي مد من الحبوب"                          | نفسه، ص. 248.                                              |



## جدول رقم 01: جرد لبعض العبارات المعتمدة في بعض المصادر للدلالة على انتشار ظاهرة الادخار والتخزين.

إن تعقب ظاهرة التخزين في بعض المصادر الوسيطية، مكنتنا من تسجيل بعض الملاحظات الهامة، ويمكن تحديدها على الشكل التالي:

1- رغبة إنسان العصر الوسيط في الاهتمام بشكل كبير بالتحصين، فأضفى عليها الطابع الأمني الدفاعي.

2- رسمت الأزمات الدورية التي اجتاحت الفترة المدروسة رغبة المجتمعات في التأمين الرصين للمدخرات؛ مع بروز تخطيط عمراني يستجيب لمتطلبات الفترة.

3- كثفت الدول الوسيطية من إعداد مخازن الطعام (أهراء ومطامير) تضمن لهم الاستمرارية والحفاظ على الحكم.

4- مبالغة المجتمعات الوسيطية في المدن والبادي في التكثيف من سلوك الاحتياط، نظرا لتعاقب فترات التطرف المناخي<sup>20</sup>.

5- نشير كذلك إلى أن المعلومات التي أمدتنا بها المصادر، هي خطوط عريضة في إطار عملية وصفية، ولم تتعقب ظاهرة التخزين تاريخيا بشكل يجعلنا نستنبط قضايا تهم الإفرازات السلوكية، والتموجات الذهنية في ظل اشتداد الأزمة، وإبراز دور الادخار في مناحي الحياة الاجتماعية، وبذلك فإن رؤيتنا لا تسعى إلى تجميع المعطيات في إطار مقارنة وصفية، بقدر ما تروم تبني طريقة جديدة في تناول ظاهرة الادخار والتخزين في الماضي، والتي تختلف حسب الوسط الإيكولوجي، والأسس الوظيفية، ونمط الحياة الاقتصادية من خلال تنوع طرق حفظ الحبوب.

6- يعد عمران التخزين بمغرب العصر الوسيط نتاج أزمة وإكراهات، فتزايد الطلب عليه بشكل كبير، ولهذا نؤكد أن سلوك الإنسان في المجال هو من يحدد طبيعة العمران،

فنتج عن ذلك خريطة عمرانية فريدة، الحصون في المرتفعات، والأهرام والمطامير في المناطق المنبسطة.

7- أصبحت ظاهرة التخزين بمغرب العصر الوسيط عادة راسخة ومتأصلة، فكانت موضوع نوازل فقهية استفتي فيها الفقهاء<sup>21</sup>، مما يبرر انتشار ظاهرة خزن الحبوب، وكراء المطمورات، التي تنجم عنها مشاكل عديدة، خاصة المطامير التي يفسد فيها الزرع.

## 2- سلوك الادخار في البوادي المغربية خلال العصر الحديث:

من المؤكد أن القبائل المغربية تعيش في تبعية إنتاجها الفلاحي لأحوال المناخ وتقلباته، التي تنتج عنها كوارث طبيعية، تبدأ عادة بالجفاف، فالجاعة والأوبئة، مما تُسهم في عرقلة الإنتاج الزراعي الذي أساسه الندرة والقلّة، مما أفضى ذلك إلى تمكن الإنسان من مقاومة هذا الواقع الصعب، بواسطة سلوكيات واقعية احترازية تجاوزت سلوكيات السطو والسرقة.

لا يمكن نكران تأثير الكوارث الطبيعية في تهيئة أساليب معمارية؛ وفق معايير وأسس تتناسب مع طبيعة الوسط الطبيعي، والتي جعلت الإنسان يبدع في ميدان عمران التخزين المصبوغ بهواجس أمنية ودفاعية بامتياز، حيث تطلعا العديد من المصادر التي أرخت للمجتمعات القبلية؛ إلى ظهور مجموعة من التشكيلات المعمارية الخاصة بتأمين وتحصين الإنتاج المعاشي، وما خلفته من ترسبات وتمثلات أفرزت ثقلها على ذهنية الإنسان.

شكلت أساليب التخزين أهم ما أنتجه الفكر الإنساني عبر التاريخ في مجال الهندسة المعمارية، ويعد معه المجال الجغرافي الفضاء؛ الذي تبلورت فيه تلك المعالم، إلا أن ذلك كله لم ينبثق إلا داخل نسق مجتمعي، وغط تفكير أثر على إنتاجه المعيشي، مما أدى ذلك إلى تزايد الطلب على هذا النوع من العمران.

إن في استقرارنا لبعض ملامح عمران التخزين، يتضح طغيان الطابع الأمني والبعد الدفاعي في تلك المنشآت المعمارية الدالة على أهمية التحصين، الأمر الذي يفصح عن رمزيتها داخل البوادي، واعتبرت بذلك قوة رمزية مؤثرة في متخيل الإنسان، نظرا لكونها تخفي في طياتها رمزا للأمن، وتجعله يستحضر قدرتها على تحقيق توازن منشود في ظل كل ما هو قادم من دورات الجوائح، وتقلبات المناخ، واشتداد الصراعات القبلية، والهجمات للصوصية المباشرة.

#### أ- المخازن الجماعية "إيكودار": مؤسسات من صميم ثقافة جماعية

إن الحديث عن حمولة مفهوم المخازن الجماعية الحصينة، هو بالدرجة الأولى حديث عن الإنسان والمجال، لذا وجب مقارنة المفهوم في إطار استحضر ومراعاة الخصوصيات للوقوف على دلالاته، والظاهر أن الفهم الحقيقي للإيكودار منوط بضبط السياقات التاريخية التي تشكلت فيها المؤسسة، إذ لا تساعدنا الدراسات ولا الأبحاث بمختلف أجناسها على الوقوف على البدايات الحقيقية التي تبلور فيها هذا المفهوم.

ثمة شبه إجماع على أن المخازن الجماعية تدل على: "إحدى الأسماء التي تطلق على سور حصين عند البرابرة؛ بداخله غرف رهن إشارة العائلات المنتمية إلى القبيلة، ويستعمل لخزن الحبوب، وتعتصم فيه القبيلة وقت الخطر"<sup>22</sup>، هذا التعريف أفضى إلى كون الأكادير يقوم بوظيفتين ملازمتين: الأولى مرتبطة بالادخار والتخزين، والثانية متمثلة في حماية أفراد وجماعات القبيلة؛ خاصة في فترة وقوع الصراعات والفتن<sup>23</sup>.

إن الفهم الحقيقي للمخازن الجماعية يستدعي منا التمييز بين ثلاث مستويات لتقديم تعريف عنها، محترمين في ذلك المتواليات التاريخية:

أولاً: السياق الحديث للظهور: تضعنا هذه القراءة في مقارنة استرجاعية لظروف تأسيس هذه المؤسسات بالمجالات الجبلية، وقد لا ندعي أن استحضر البعد الزمني في هذه الحالة سهل المنال، لاعتبارات منها أننا لم نتوصل بعد بما يقرنا من البدايات الأولى لاهتمام

المجتمعات بهذه المؤسسة، كنظام في التضامن والتعاون؛ نظرا لكونها ممتدة في الزمن، بيد أن الأمر الذي نتوخاه من خلال هذا السياق، رصد الظروف التي حتمت على السكان تشييد هذه المخازن الجماعية وتكثيفها.

من المعلوم أن لكل ظاهرة سياقاتها، فعلى سبيل المثال لا الحصر؛ أنه إذا كانت القصبات المخزنية بالسياسة العسكرية التي يقوم بها السلاطين على التراب ترتبط بمراقبة المدن والمجموعات القبلية، وتقريب المسافة بين مراكز القرار والمجال، فإن الحصون الجماعية انبثقت من صميم المجتمع، أي أنها صياغة وإبداع مجتمعي ارتبطت بزمن تاريخي محدد، وفي إطار التدبير السليم للممتلكات في نطاقات متسمة بالدورات المناخية، فضلا عن كون هذه المناطق لم تكن خاضعة لسلطة مركزية قارة<sup>24</sup>، وهذا ما جعل تلك المؤسسات؛ حسب أحد الدارسين؛ تعد دلالة في الحياة الريفية<sup>25</sup>.

**ثانيا: شبكة الإيكودار والتوزيع المجالي:** إن المتتبع لجغرافية البوادي الجبلية، سيستعري انتباهه كثرة المؤسسات التعاونية التنظيمية "إيكودار"، الأمر الذي يبرز الأهمية الحضارية والتاريخية للمنطقة، وجدير بالإشارة أن هذه المخازن الجماعية تبين مدى ارتباط الإنسان بمحيطه المجالي، وبذلك يغدو المجال مفسرا حقيقيا لإنتاج تلك المؤسسات المتجذرة تاريخيا، والحاصل أن كل تجمع قبلي يؤسس حصنا، من هنا نتوصل إلى أن الإنسان له نمط التفكير في إبداع أشكال متعددة حسب طبيعة التجمعات السكانية.

**ثالثا: الإيكودار التدبير وتكامل الوظائف:** شكل التدبير نجما معهودا تؤديه المخازن الجماعية في مجالات عبارة عن تشكلات ذو مستويات اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، فتحقيق التدبير المتوازن جعل الإنسان ينظر بمنظاره الواسع إلى أن الإيكودار صمام الأمان في توفير الأمن الاقتصادي، كإحدى الأولويات التي يراهن عليها الجميع لضمان العيش، في ظل أزمة الخصاص والندرة، واسترجاع التوازن، وهو ما يفسر أن الإيكودار نتاج سلوكي، ومعطى أفرزته الضرورات.

ومن هذا المنظور، ارتبطت الوظيفة الاقتصادية بالبعد الأمني في استراتيجيات الإيكودار، فمن هذه الزاوية يتوخى الإنسان ادخار منتوجاته الزراعية، حتى يستعين بها في ظل انكماش وضعف الإنتاج، إن هذا التدبير يحقق الأمن الغذائي ويوفر الاستهلاك في ظل العودة الدورية للأزمات، وأنها تضمن مخزون أسرة واحدة، كما يمكنه أن يشمل مخزون قبيلة بأسرها<sup>26</sup>.

ارتبطت شبكة الحصون عامة بكونها خزاناً ومستودعاً لادخار الحبوب وما يملكه الإنسان من محاصيل زراعية، والأشياء الثمينة من وثائق، وحلي، وأثاث، وأدوات المطبخ، وأسلحة وذخيرة، خوفاً وخشية من النهب والسرقه، وكل ما يمكن ادخاره تحسباً لتقلبات الزمن<sup>27</sup>.

تشكل الإيكودار كذلك مؤسسة تحقق وظيفة اجتماعية؛ من خلال حفاظها على العلاقات الاجتماعية في المجتمع القروي، بالإضافة إلى أنها تعد مصدراً للحفاظ على الوحدة الجماعية للقبيلة، الأمر الذي جعلها "جزءاً من التنظيم الاجتماعي على مستوى القبيلة الصغيرة أو الفرقة"<sup>28</sup>، في الوقت نفسه يتوفر الحصن على غرف متنوعة مثل غرفة جمع التبرعات والإعانات للمؤسسات الدينية<sup>29</sup>، وبهذا تشكل الإيكودار حلقة أساسية في تصريف التموين الموجه للطلبة وفقهاء المدارس العتيقة، مما يجعلنا نؤكد أن المخازن الجماعية في علاقة ترابطية بالمؤسسات الدينية التي تخضع لميزان القوى، ومصالح تتحكم فيها القبيلة بصفة شمولية<sup>30</sup>.

**خطاطة رقم 01: ناظمة لمحتوى الدلالات الكبرى للمخازن الجماعية "إيكودار"**

|                 |                     |                           |
|-----------------|---------------------|---------------------------|
| الحصن كنمط سلوك | الحصن كمؤسسة مرتبطة | الحصن كتنظيم وخزان للسلطة |
|                 |                     |                           |

|                                                                                |                                                                            |                                                             |
|--------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------|
| اقتدت به المجتمعات القروية عبر التاريخ، ويوحى ذلك إلى فكرة الاحتياط تحسباً لأي | مؤسسة من نتاج ثقافة جماعية بامتياز. وسيلة للحفاظ على تماسك الذات الجماعية. | تقنين المؤسسة وفق منظومة قانونية مؤسساتية يخضع لها المجتمع. |
| ج                                                                              | 188                                                                        | ج                                                           |

### الحصون ظاهرة بنيوية متجذرة في البوادي المغربية

#### ب- المطامير:

أما في ما يخص المجالات المكشوفة جغرافيا، فقد أبدع الإنسان نوعا آخر من أساليب التخزين، ويتعلق الأمر بنظام المطامير "تسْرِفِيْن" بالأمازيغية التي تقام في السهول، وهي مخازن تحت أرضية يوسع أسفلها ولها فتحة ضيقة يمكن إحكام إغلاقها<sup>31</sup>، تخصص عادة لتخزين الحبوب لمدة طويلة<sup>32</sup>، وللحفاظ على طراوتها دون أن تتعرض للفساد والتلف، يشترط حفرها في مواضع صخرية صلبة لتفادي انهدامها، وأثناء ملئها يتم تعقيم تلك التجاويف الأرضية مخافة فساد المحصول<sup>33</sup>، هكذا استطاع الإنسان أن يحافظ على جودة الحبوب المدخرة تحت الأرض لسنوات دون أن يعتريها فساد ملحوظ.

إن ما يبرز الهاجس الأمني الدفاعي في هذا النوع من العمران يختلف تدريجيا عن الحصون الجبلية، ففي ظل الجوائح والصراعات التي تستهدف الحصول على أماكن خزن الحبوب؛ يتبين أن المطامير عموما غير مكشوفة جغرافيا، وتبعد كل الطامعين، وبالتالي من الصعب أن تكون في متناول الأعداء، ويعد هذا المعطى وحده دليلا حقيقيا على أن الإنسان بالمجالات السهلية خبر أحوال المجال، وتألق في اختيار هندسة معمارية مناسبة.

هذا السلوك التخزيني يترجم بعمق حقيقي الأثر الذي مارسه التحولات التي تشهدها المجالات السهلية بين الفينة والأخرى، ووفقا لذلك تزايد الطلب على هذا النوع

من العمران، فاهتدى الإنسان إلى حماية مدخراته إما في مطامير خاصة، تكون في الغالب قريبة من النواذر أو الحقول، لكن بفضل حنكة الإنسان ودهائه استطاع الوصول إليها، والتعرف على أماكن وجودها، خاصة حينما تظهر بعض المؤشرات الطبيعية، كوجود فرق من النمل قربها، أو ظهور البخار وهو يتصاعد منها عند طلوع الشمس<sup>34</sup>.

ولم يتوقف الأمر عند هذه المطامير الخاصة التي تضمن مخزون عائلة واحدة لا يشارطها فيه أحد، بل إن الإنسان فكر في إنتاج مطمورات كثيرة تدعى "بالمطامير الجماعية"<sup>35</sup>، وتشكل في مجموعها ما يسمى "بالمرس"<sup>36</sup>، وتشترك فيها القبيلة أو الدوار، ويقع وسط القبيلة، ويسهر على حراستها "أمراس"<sup>37</sup>، وتكون مهمته إعطاء إشارات واضحة لتحذير السكان في الوقت الذي تتعرض فيه المخازن لأي خطر خارجي<sup>38</sup>، ويتقاضى مقابل عمله مدا ونصف من الكمية المخزونة كلما تم الإعلان عن فتح الأمراس.

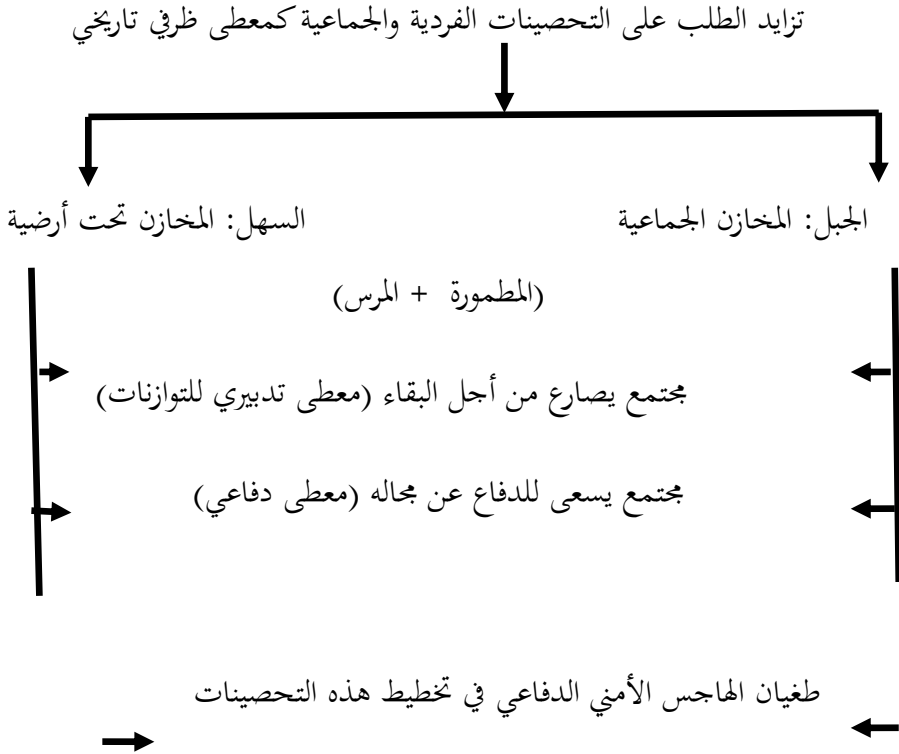
من الواضح كذلك أن المجالات السهلية بالمغرب، شكلت محورا حقيقيا تستهدفه الحركات المخزنية بين الفينة والأخرى، فيضطر الإنسان مع تلك الحملات التحصيلية إلى جعل الحبوب في مطامير غير مكشوفة للجباة، لكن من المؤكد أن المخزن كان على إدراك تام بمدى توفر القبائل على مخازن احتياطية، يراهن عليها أثناء القيام بالحركات، ويعد نظام المطمورة نموذجا دفاعيا وأمنيا حقيقيا لإخفاء المدخرات، حتى لا تتعرض للمصادرة، والواقع أن الحاجة الملحة للتموين في ظل الحركات مكنت المخزن من الوصول إليها، ففي فترة حكم المولى إسماعيل عانى جيشه من خصاص كبير في الأغذية بسبب فرار الفلاحين من البوادي، فوظف الكلاب التي لها حاسة شم قوية للكشف عن المطامير<sup>39</sup>.

**خطاظة رقم 02: ناظمة لأهمية التحصينات في حياة المجتمعات بالمغرب الحديث**

المجتمعات القروية



الحاجة للحفاظ على استقرارها ككيان مستقل



#### خاتمة:

قصارى القول، شكل الادخار خطوة سلوكية واقعية تعودت عليه الدول والمجتمعات بالمغرب خلال فترتي العصر الوسيط والحديث، قصد تأمين القوات في فترات الشدة، وتحسبا للأزمات الفجائية، وفي هذا الصدد أعدت مستودعات كالمطامير، والمخازن الجماعية استحضروا القائمون على تهيئتها مجموعة من الشروط للحفاظ على طراوة المدخرات، تجنباً لفساد المخزونات وضياعها.



والحاصل، فقد أبان التحليل أن التخزين كان من الحاجات الملحة، ومن الضوابط الأساسية التي تمسك بها المجتمع في حياته، فنسج من خلاله إنتاجا ثقافيا وأديبا ينم عن الدهنية الجماعية.

- <sup>1</sup> - عبدالرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1992، ص. 302.
- <sup>2</sup> - لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تقدم وتحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1989، ج. 3، ص. 89.
- <sup>3</sup> - حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، 609 - 869 هـ / 1212 - 1465م، مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث 01، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2010، ص. 99.
- <sup>4</sup> - محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، الطبعة الثانية، 1983، ص. 32.
- <sup>5</sup> - محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984، ص. 235.
- <sup>6</sup> - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 2، 1983، ج. 1، ص. 133.
- <sup>7</sup> - المصدر نفسه، ج 1، ص. 132 - 133.
- <sup>8</sup> - الأنصاري، ص. 38.
- <sup>9</sup> - الحسين أسكان، "المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب"، ضمن ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، سلسلة ندوات ومناظرات عدد 4، مطبعة النجاح الجديدة، ص. 140.

<sup>10</sup> - Bernard Rosenberger, "calamités, sécurité, pouvoir: le cas du Maroc XVII<sup>e</sup> - XVIII<sup>e</sup>", in **peuples méditerranéens**, n° 27 – 28, avril – septembre, 1984, p. 262.

<sup>11</sup> - الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 2002، ص. 69.

<sup>12</sup> - عبد الهادي البياض، "مرافق الادخار والحزن بالمغرب الوسيط: إسهام في دراسة سلوك تأمين الغذاء"، ضمن منشورات **المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية**، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة دراسات وأبحاث رقم 35، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2013، ص. ص. 70 – 71.

<sup>13</sup> - هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي**، مطبعة فضالة، 1995، ج. 2، ص. ص. 286، 287.

<sup>14</sup> - أحمد العمري، **مسالك الأوبار في ممالك الأمصار: من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر** "ممالك إفريقيا ما وراء الصحراء، وممالك إفريقية وتلمسان وجبال البربر وبر العدو والأندلس"، تحقيق وتعليق مصطفى أبوضيف، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1988م، ص. 116.

<sup>15</sup> - الوزان، ج. 1، ص. 215.

<sup>16</sup> - المصدر نفسه، ص. 248.

<sup>17</sup> - المصدر السابق، ص. 153.

<sup>18</sup> - نفسه، ص. 104.

<sup>19</sup> - أبو الحسن ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، حققه وعلق عليه اسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 1970م، ص. 141.

<sup>20</sup> - ينظر بعض مظاهر التطرف المناخي في بادية المغرب الوسيط ضمن: عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم: 67، مطبعة الأمنية، الرباط، ط. 1، 2012، ص. ص. 283 حتى 288.

<sup>21</sup> - نازلة فقهية: "المرأة التي أكثرت مطمرا فخرته فوجدت القمح مسوسا، وصاحب المطمر عالم بأنه يسوس".

أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ج. 8، ص. 285.

<sup>22</sup> - **Encyclopédie de l'Islam**, première et deuxième édition.

نقلا عن أحمد صابر، "الأسماء التي سميت بها أكادير ما بين 1480، 1986"، ضمن ندوة مدينة أكادير الكبرى المحور التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، ط. 1، ص. 112.

- إن هذه النقطة بالذات أثارها كذلك أحد الأجانب أثناء دراسته مخازن الأطلس الكبير:<sup>23</sup>

Lieutenant P Dupas, "Note sur les magasins collectifs du Haut- Atlas occidental (tribus des Ida ou Mahmoud et Seksaoua", **Hespéris**, Tome. 9, 4<sup>e</sup> trimestre, 1929, p. 305.

<sup>24</sup> - أزيكو، مادة "أكادير"، معلمة المغرب، في معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1410هـ/ 1989م ج. 2، ص. 586.

<sup>25</sup> - محمد بوشلحة، أرياف سوس وماسة التحولات الحديثة والدينامية والسوسيو مجالية، سلسلة شهادات، المطبعة والوراقة الوطنية، ط. 1، 2007، ج. 1، ص. 130.

<sup>26</sup> - Susan Nouvel, **Nomades et sédentaires au Maroc**, Paris, 1919, p. 47.

<sup>27</sup> - سعاد بلحسين، "المخازن الجماعية بالأطلس الكبير المركزي دعوة لثمين التراث المعماري الجبلي"، ضمن مؤلف جماعي العمران والمجال والإنسان في تاريخ المغرب، مطابع الرباط نت، الطبعة الأولى، 2017، ص. 35.

<sup>28</sup> - إبراهيم ياسين، جنوب أطلس مراكش تحت حكم الفرنسيين والقادة الكلاويين، دار أبي رقرق، 2003، ص. 104.

<sup>29</sup> - نزهة العمراني، التنمية الاجتماعية والاقتصادية لأقدم اتحادية في تاريخ المغرب نموذج أيت عبدالله، المطبعة الرئيسية، أكادير، 2010، ص. 17.

<sup>30</sup> - الحفوظ أسمىهي ومبارك ايت عدي، "التمويل القبلي للمدارس العتيقة وتحولاته مدرسة سيدي يعقوب بإيلاين نموذجاً"، ضمن ندوة المدارس العتيقة بالمغرب دور القبائل في التدبير والتمويل، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، ط. 2015، ص. 29.

<sup>31</sup> - عمر (أفا)، مسألة النقود في تاريخ المغربي في القرن التاسع عشر (سوس 1822م - 1906م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، أطروحات ورسائل: 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1988، ص. 418.

<sup>32</sup> - الوزان، ج. 1، ص. 248.

<sup>33</sup> - أحمد زروال، مادة "المطمورة"، معلمة المغرب، ج. 21، ص. 7180.

<sup>34</sup> - Bernard Rosenberger, **réserves de grain et pouvoir dans le Maroc précolonial**, CENERS, p. 239.

<sup>35</sup> - العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، ج. 2، ص. 284.

<sup>36</sup> - محمد المنوني، ورقاق عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم: 20، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 2، 2000، ص. 146.

<sup>37</sup> - Michaux Bellaire et Salmon, « les tribus arabes de la vallée du lukous », **A. M.**, 1906, volume. VI, p. 306.

<sup>38</sup> - Bernard Rosenberger, « calamité – sécurité », op. cit, p. 257.

<sup>39</sup> - عبد الله التسافتي، رحلة الوافد، تحقيق علي صدقي أزايكو، منشورات كلية الآداب القنيطرة، 1992، ص. 69.